

## نقد ذاتي/ مقالة حول منج أهل السنة

هذه كلمة أحببت أن أكتبها في ظل ما يشهده الجميع من نشاط علمي أو عملي لأهل السنة والجماعة... أرجو أن يكون مدعاة للنظر.

يقول بعض المفكرين إنَّ الإنسانَ قد يتأثر بخصمه وهو يردّ عليه، لأنَّ تداول المسألة وتحليلها ومحاولة دفعها قد يسبّب تسلّل بعض مبادئها وظلالها إلى المفكر الذي يردّها ويفنّدها، لكن يشترط لحصول ذلك بالفعل أن يكون ذلك المفكر واقعاً في غفلة من بعض الوجوه، وهذا ما قد يحصل فعلاً لدى بعضهم، خصوصاً إذا لم يكن محيطاً بمباني المسألة وأصولها وإعياً بدلائلها محققاً لها أتمّ تحقيق، وقد قرأت في بعض التراجم أنّ كباراً من الناس وقع لهم ذلك فيما لم يحيطوا بعلمه مما لم يختصوا به من فنون المعرفة.

هذه مشكلة خطيرة قد تتعمق أكثر وأكثر، فقد يحدث وأن يتربى مجتمع ما على مخاصمة فكرة معينة، وهي فعلاً فكرة باطلة في نفسها، بحيث يضادونها باستمرار، فيصير ضدّ هذه الفكرة الباطلة رأياً يعتمد ويعتقد، ويمتدّ الزمان بأهله حتى ينسى آخرهم فيم كانت الخصومة أوّل الأمر، ولأجل أي شيء رفضوا تلك الفكرة الباطلة، حتى إذا جاء منهم مفكر بصير يعيد الأمور إلى نصابها ويذكر بأوائل الأمور عاداه أهل الزمان وخاصموه كما لو لم يكن منهم بالفعل، وسبب الخطورة هنا أن المجتمع بأكمله (العقل الجمعي كما يقولون) صار منقاداً بحكم العادة أو بحكم غيرها إلى شيء لا يعي لم كان، ولا على أي أصل كان.

ولتقريب مرادي والتمثيل له بصورة أكثر عملية ووضوحاً؛ أقول تمثيلاً وتقريباً: إنّ الوهابية أعادوا فيما أرى تشكيل عقول كثير من الناس عبر عقود، فنجحوا في جعل بعض مسائلهم التي أثاروها أصولاً لدى هؤلاء الناس (كتكفير من يقول بالتوسّل والاستغاثة وحرمة الزيارة والذكر الجهري والاجتماع لمناسبات المولد وعاشوراء وتعظيم أيام الله تعالى ومواسم البركات بصور مخصوصة، وأيضاً تعظيم أشخاص معينين وتحقير آخرين، وغير ذلك من الأمور المشهورة كمحبة الصوفية واعتقادهم، مع أننا عند التأمل ندرك تماماً أنّ هذه المسائل لم تكن يوماً أصولاً لأهل السنة والجماعة، ولا أعلاماً على مذاهبهم، ولا معياراً على صدق الانتساب لأهل السنة، وهذا أمر واضح لا يحتاج لشرح، بل ينبغي أن يدرك بأقل تنبيه، إذ إن هذه المسائل قد يكون جمهور العقلاء من فرق المسلمين

قائلين بجوازها، علاوة على عدم التكفير بها. نعم، إن لأهل السنة رأياً في هذه المسائل وموقفاً واضحاً، بل يكادون يتفقون على جواز أكثرها، لكن ليست هذه المسائل أصولاً لهم، وفرق كبير بين أن يكون لهم فيها رأي، وبين أن تكون أصولاً لمذهب أهل السنة.

ما الذي أريد أن أقوله؟ أقول: صار أكبر عنوان لأهل السنة والجماعة في زماننا هذا أن يبرز شخص ما فيتكلم في مسائل معينة تدلّ على كراهيته لفلان أو للطائفة الفلانية، أو يقرّر فيها رأياً معيناً في مسألة جزئية معينة، فتصير له صولة وجولة باسم أهل السنة والجماعة، وإذا حوقق في أصول أهل السنة والجماعة وفروعهم، وسئل عما قرأه واستوعبه وفهمه على وجهه من كتب علم الكلام وأصول الفقه والحديث والفقه والتفسير وعلوم اللغة والمنطق والمقولات، لم تجده شيئاً، بل لم تجده بدون تعدية إلى مفعول ثان، عدا عما كان يحيط به السابقون من آراء أهل الملل والنحل والفرق والطوائف واختلاف الآراء وأساليب النظر والجدل وغير ذلك من معرفة الواقع وحياسة الملكات العقلية والنفسية وما يطول الكلام فيه.

أنا لا أريد أن أنصح هؤلاء بشيء من الإخلاص أو التقوى، ولا أريد أن أقول للعلماء أن يتنبهوا إلى خطورة الموقف، لكني فقط أريد أن أتساءل: إذا دامت حال أهل السنة أو المنتسبين إليهم في هذه الغفلة لسنوات، فما هي معالم أهل السنة ومذهبهم التي ستكون لاحقاً، وما سيكون مصيرهم في قادم الأيام، وأي وجه سيكون لهم أمام خصومهم المتنوعين، وهل سيقدرّون على مناقشة المسائل الفلسفية والكلامية، وما يتعلق بالعلوم الكونية والتجريبية وما يحمله الملاحظة من شبهات وتشكيكات ضد أصل الدين الذي لا يتقن فنونه أكثر الزاعمين بمسائل جزئية لا يكاد البحث فيها يرتقي إلى درجة الوجوب الشرعي، بل تقف ما بين مندوب ومباح، بل قد لا تعدو أحياناً أن تكون صورة من صور حكم شرعي قد يتحقق بعشرات الصور التي لم يسمّ الشارع شيئاً منها بعينه، صار من جملة مشكلاتنا مثلاً تحت هذا الظرف الأليم أن نميز بين تصوف سني صحيح، وتصوف غير سني ولا صحيح، وإنما حصلت هذه المشكلة لعدم معرفة أصول أهل السنة في مسائل الأمور العامة من علم الكلام، ومسائل الدلالات من أصول الفقه، التي تشكل بأجمعها قانون الدين الإسلامي، والفيصل بين حق وباطل، وجرى تحت وطأة الغفلة تضخم مسائل فرعية على حساب أخرى أصلية بسبب الجهل بحقائق هذه المسائل جميعاً، ولأجل أن الوهابية مثلاً لم ينصفوا التصوف وهاجموه مطلقاً صار الرادون عليهم يمدحون التصوف مطلقاً، فوقع الكل في فخ الجهل من غير تمييز بين مفهوم ومفهوم.

فلنسأل أنفسنا سؤالاً: لماذا كان أبو الحسن الأشعري إماماً لأهل السنة والجماعة؟ أرى أن ذلك كان لأنه لم يترك قائلاً يقول في دين الله كلمة باطلة بدون أن يحاسبه على قوله، وبذل في ذلك كل طاقته وجهده، ولم يكون عشوائياً في ذلك، بل منظماً منضبطاً، ولذلك ذكروا أنه كتب أكثر من ٥٠٠ مصنف، كثير منها ردود على من أخطأوا الرأي في الدين، يعيد فيها الحق إلى نصابه، حتى إننا لنقطع بأن هذا الرجل الأشعري كان صاحب نظرة كلية ومذهب متكامل، وليس مجرد منفعل تجاه فلان وفلان، ومسألة هنا أو هناك، أقول: عندما تكون مثل هذه النظرة الكلية حاضرة فهناك تجد الإخلاص والتوفيق والرعاية الإلهية والمدد السماوي والكنف الرباني، حتى إن أهل السنة يدفعون عن الأشعري أقل قيل، مع أننا لا نمت له بصلة ولا قرابة ولا نسب، بل تقطع بيننا وبينه قرون وقرون، قطعاً لم تجمعنا به مسألة جزئية، بل جمعنا به إسلام عظيم ذو مبادئ عظيمة.

ومن جملة ما حكى عن الأشعري فيما نحن بصدد أنه سئل لماذا لا يبادره الناس بالسؤال مع أنه عالم جهبذ ويسألون غيره من المتصدين، فقال بحسب ما ورد في بعض مواضع طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٤٠٣/٣): "أنا لا أتكلم مع هؤلاء ابتداءً، ولكن إذا خاضوا في ذكر ما لا يجوز في دين الله رددنا عليهم بحكم ما فرض الله علينا من الرد على مخالفتي الحق، وعلى هذه الجملة سيرة السلف أصحاب الحديث المتكلمين منهم في الرد على المخالفين وأهل الشبه والزيف"، فلم ينحصر موقفه ضد شخص أو فكرة معينة، بل توزع جهده على كل من يخالف الدين، وهذا يوقفنا على مقدار علوم هذا الإمام، واتساع علوم أهل السنة.

أخشى أن أقول: إن الوهابية نجحوا في قولبة الفكر السني على غفلة منا، بحيث ما عاد كثيرون يعرفون عن مذهب أهل السنة أكثر من مخالقات الوهابية، وكأن لم يكن لأهل السنة جهود كبيرة وكثيرة في الرد على مئات الفرق والملل والنحل والطوائف، وكأن لم يكن لأهل السنة مجالات علمية سبقوا فيها وفاقوا، سواء كانت علوماً دينية أو دنيوية، وكأن لم يكن لأهل السنة صولة في مسائل الدنيا من اقتصاد وسياسة وإدارة، حتى كاد بعض علمائنا يقدرّون على تحريك الدول العظمى وتربية الأئمة العظام.

هل نحتاج أن نتكلم عن مدى اتساع علوم أهل السنة؟ نعم، يبدو أننا نحتاج إلى ذلك كثيراً، بل حاجتنا إلى ذلك ماسة، فالقضية أكبر مما يتخيله كثير، وهذا الذي أكتبه أقصد به نفسي ابتداءً،

ونفع من يمكن أن ينتفع به، ولا أقصد به قدحاً في أحد، معاذ الله تعالى، لكن هذه كلمات إن لم يقلها أصحابها، فهل سيقولها لنا من يخاصموننا في الحق واليقين؟

كتبها جاد الله بسام

٤ - شعبان - ١٤٤٣ الموافق ٧ - آذار - ٢٠٢٢